الغزالي

كتاب التوبة

CA
297.22
G411kA
c. 1

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

كِتَابُ التَّوْبَةِ

لِلإِمَامِ حُجَّةِ الإِسْلَامِ أَبِي حَامِدٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الغَزَالِي

وَبِهَامِشِهِ تَعْلِيقَاتٌ مِنَ الكِتَابِ المُقَدَّسِ

مُنَاسِبَةٌ لِلمَوْضُوعِ

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت ١٩٢٤

CA
297.22
G411kA
c.1

كِتَابُ ٱلتَّوْبَةِ

لِلإِمَامِ حُجَّةِ ٱلإِسْلَامِ أَبِي حَامِدٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلغَزَالِي

وَبِهَامِشِهِ تَعْلِيقَاتٌ مِنَ ٱلكِتَابِ المُقَدَّسِ

مُنَاسِبَةٌ لِلْمَوْضُوعِ

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت ١٩٢٤

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَبِ ٱلْأَنْوَارِ ٱلَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلَا ظِلُّ دَوَرَانٍ ٱلَّذِي يُنِيرُ بِنِعْمَتِهِ ٱلْعَامَّةِ كُلَّ إِنْسَانٍ وَلَا يَحْرِمُ أُمَّةً وَلَا شَعْبًا لَا شَرْقًا وَلَا غَرْبًا. لِأَنَّهُ ٱلنُّورُ ٱلَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتٍ إِلَى ٱلْعَالَمِ

أَمَّا بَعْدُ إِنَّهُ لَمَّا كَانَ كِتَابُ إِحْيَاءِ ٱلدِّينِ مِنْ أَفْصَحِ وَأَسْمَى كُتُبِ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ ٱلْعُصُورِ ٱلْغَابِرَةِ وَٱلْحَاضِرَةِ بِشَهَادَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْتَشْرِقِينَ رَأَيْنَا نِسْبَةً لِلظُّرُوفِ ٱلْحَاضِرَةِ ٱلَّتِي كَثُرَتْ فِيهَا ٱلْحُرُوبُ ٱلْأَخْلَاقِيَّةُ أَنْ نَخْتَارَ مِنَ ٱلرُّبْعِ ٱلرَّابِعِ مِنْهُ ٱلَّذِي مَوْضُوعُهُ ٱلْمُنْجِيَاتُ كِتَابَ ٱلتَّوْبَةِ بِٱخْتِصَارٍ قَلِيلٍ وَطَبَعْنَا هٰذَا ٱلْكُتَيِّبَ طَبْعَةً حَسَنَةً مُشَكَّلَةً لِكَيْ يَسْتَعْمِلَهَا وَيَفْهَمَهَا ٱلْجَمِيعُ.

وَلَمَّا كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ يَقْتَبِسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمَسِيحِيَّةِ وَٱلْأَحَادِيثِ ٱلْقُدْسِيَّةِ رَأَيْنَا لِزِيَادَةِ ٱلْفَائِدَةِ أَنْ نُعَلِّقَ عَلَى أَقْوَالِهِ مِنْ كِتَابِ ٱللهِ وِفْقًا لِمَا قَالَهُ سُلَيْمَانُ ٱلْحَكِيمُ "تُفَّاحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي مَصُوغٍ مِنْ فِضَّةٍ" امثال سليمان ٢٥: ١١ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقِ ٱلتَّوْبَةِ لِأَنَّهَا وَحْدَهَا طَرِيقُ ٱلْخَلَاصِ. وَيَجْعَلُ ٱلْمَسِيحِيِّينَ أَجْمَعِينَ يُقَدِّرُونَ ٱلْحَقَائِقَ ٱلثَّمِينَةَ ٱلْمَوْجُودَةَ فِي ٱلْكُتُبِ حَقَّ قَدْرِهَا وَيَسْتَعْمِلُونَهَا كَمُرْشِدٍ لِإِخْوَتِنَا ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى ٱلْمَسِيحِ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْمَجْدُ آمِينَ

مقدمة

(أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّ التَّوْبَةَ عَنِ الذُّنُوبِ. بِالرُّجُوعِ إِلَى سَتَّارِ الْعُيُوبِ وَعَلَّامِ الْغُيُوبِ. مَبْدَأُ طَرِيقِ السَّالِكِينَ. وَرَأْسُ مَالِ الْفَائِزِينَ. وَأَوَّلُ إِقْدَامِ الْمُرِيدِينَ[1]. وَمِفْتَاحُ اسْتِقَامَةِ الْمَائِلِينَ. وَمَطْلَعُ الِاصْطِفَاءِ وَالِاجْتِبَاءِ لِلْمُقَرَّبِينَ. وَلِأَبِينَا آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعِينَ. وَمَا أَجْدَرَ بِالْأَوْلَادِ. الِاقْتِدَاءُ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ فَلَا غَرْوَ إِنْ أَذْنَبَ الْآدَمِيُّ وَاجْتَرَمَ. فَهِيَ شِنْشِنَةٌ يَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمَ. وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ. وَلَكِنَّ الْأَبَ إِذَا جَبَرَ بَعْدَ مَا كَسَرَ وَعَمَّرَ بَعْدَ أَنْ هَدَمَ. فَلْيَكُنِ الْتُّرُوعُ إِلَيْهِ فِي كِلَا طَرَفَيْ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ وَالْوُجُودِ وَالْعَدَمِ. وَلَقَدْ قَرَعَ آدَمُ سِنَّ النَّدَمِ. وَتَنَدَّمَ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُ وَتَقَدَّمَ. فَمَنِ اتَّخَذَهُ قُدْوَةً فِي الذَّنْبِ دُونَ التَّوْبَةِ فَقَدْ زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ. بَلِ التَّجَرُّدُ لِمَحْضِ الْخَيْرِ دَأْبُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ. وَالتَّجَرُّدُ لِلشَّرِّ دُونَ التَّلَافِي سَجِيَّةُ الشَّيَاطِينِ. وَالرُّجُوعُ

(١) تُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ لِكَيْ تَأْتِيَ أَوْقَاتُ الْفَرَجِ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ — أعمال الرسل ٣:١٩

إِلَى الخَيْرِ بَعْدَ الوُقُوعِ فِي الشَّرِّ ضَرُورَةُ الآدَمِيِّينَ فَالمُتَجَرِّدُ لِلخَيْرِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ عِنْدَ المَلِكِ الدَّيَّانِ . وَالمُتَجَرِّدُ لِلشَّرِّ شَيْطَانٌ . وَالمُتَلَافِي لِلشَّرِّ بِالرُّجُوعِ إِلَى الخَيْرِ بِالحَقِيقَةِ إِنْسَانٌ . فَقَدِ ٱزْدَوَجَ فِي طِينَةِ الإِنْسَانِ شَائِبَتَانِ . وَٱصْطَحَبَ فِيهِ سَجِيَّتَانِ . وَكُلُّ عَبْدٍ مُصَحِّحٌ نَسَبَهُ إِمَّا إِلَى ٱلْمَلَكِ اوْ إِلَى آدَمَ او إِلَى الشَّيْطَانِ . فَالتَّائِبُ قَدْ أَقَامَ البُرْهَانَ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِ إِلَى آدَمَ بِمُلَازَمَةِ جَدِّ ٱلإِنْسَانِ . وَالمُصِرُّ عَلَى الطُّغْيَانِ . مُسَجِّلٌ عَلَى نَفْسِهِ بِنَسَبِ الشَّيْطَانِ . فَأَمَّا تَصْحِيحُ النَّسَبِ إِلَى المَلَائِكَةِ بِٱلتَّجَرُّدِ لِمَحْضِ ٱلخَيْرِ فَخَارِجٌ عَنْ حَيِّزِ الإِمْكَانِ . فَإِنَّ الشَّرَّ[1] مَعْجُونٌ مَعَ ٱلخَيْرِ فِي طِينَةِ آدَمَ عَجْنًا مُحْكَمًا لَا يُخَلِّصُهُ إِلَّا إِحْدَى النَّارَيْنِ . نَارُ ٱلنَّدَمِ أَوْ نَارُ جَهَنَّمَ فَالإِحْرَاقُ بِٱلنَّارِ ضَرُورِيٌّ فِي تَخْلِيصِ جَوْهَرِ ٱلإِنْسَانِ مِنْ خَبَائِثِ ٱلشَّيْطَانِ . وَإِلَيْكَ ٱلآنَ ٱخْتِيَارُ أَهْوَنِ ٱلنَّارَيْنِ . وَٱلمُبَادَرَةِ إِلَى أَخَفِّ ٱلشَّرَّيْنِ . قَبْلَ أَنْ يُطْوَى بِسَاطُ ٱلٱخْتِيَارِ . وَيُسَاقُ إِلَى دَارِ ٱلٱضْطِرَارِ . إِمَّا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَ إِمَّا إِلَى ٱلنَّارِ . وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ مَوْقِعُهَا

(١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الخَطِيَّةُ إِلَى العَالَمِ وَبِالخَطِيَّةِ المَوْتُ وَهَكَذَا اجْتَازَ المَوْتُ الى جَمِيعِ النَّاسِ اذ أَخْطَأَ الجَمِيعُ — رومية ١٢:٥

مِنَ ٱلدِّينِ هٰذَا ٱلمَوْقِعُ وَجَبَ تَقْدِيمُهَا فِي صَدْرِ رُبْعِ ٱلْمُنْجِيَاتِ وَبِشَرْحِ حَقِيقَتِهَا وَشُرُوطِهَا وَسَبَبِهَا وَعَلَامَتِهَا وَثَمَرَتِهَا وَٱلآفَاتِ ٱلمَانِعَةِ مِنْهَا وَٱلأَدْوِيَةِ ٱلمُيَسِّرَةِ لَهَا

بَيَانُ حَقِيقَةِ ٱلتَّوْبَةِ وَحَدِّهَا

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلتَّوْبَةَ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْنًى يَنْتَظِمُ مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ مُرَتَّبَةٍ عِلْمٌ وَحَالٌ وَفِعْلٌ فَٱلعِلْمُ ٱلأَوَّلُ وَٱلحَالُ ٱلثَّانِي. وَٱلفِعْلُ ٱلثَّالِثُ وَٱلأَوَّلُ مُوجِبٌ لِلثَّانِي وَٱلثَّانِي مُوجِبٌ لِلثَّالِثِ إِيجَابًا ٱقْتَضَاهُ ٱطِّرَادُ سُنَّةِ ٱللهِ فِي ٱلمُلْكِ. وَٱلمَلَكُوتِ. أَمَّا ٱلعِلْمُ. فَهُوَ مَعْرِفَةُ عِظَمِ ضَرَرِ ٱلذُّنُوبِ. وَكَوْنِهَا حِجَابًا بَيْنَ ٱلعَبْدِ[1] وَبَيْنَ كُلِّ مَحْبُوبٍ. فَإِذَا عَرَفَ ذٰلِكَ مَعْرِفَةً مُحَقَّقَةً بِيَقِينٍ غَالِبٍ عَلَى قَلْبِهِ ثَارَ مِنْ هٰذِهِ ٱلمَعْرِفَةِ تَأَلُّمٌ لِلْقَلْبِ بِسَبَبِ فَوَاتِ ٱلمَحْبُوبِ فَإِنَّ ٱلقَلْبَ مَهْمَا شَعَرَ بِفَوَاتِ مَحْبُوبِهِ تَأَلَّمَ فَإِنْ كَانَ فَوَاتُهُ بِفِعْلِهِ تَأَسَّفَ عَلَى ٱلفِعْلِ ٱلمَفُوتِ فَيُسَمَّى تَأَلُّمُهُ بِسَبَبِ فِعْلِهِ ٱلمَفُوتِ لِمَحْبُوبِهِ نَدَمًا فَإِذَا غَلَبَ هٰذَا ٱلأَلَمُ عَلَى ٱلقَلْبِ

(١) بَلْ آثَامُكُمْ صَارَتْ فَاصِلَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِلٰهِكُمْ وَخَطَايَاكُمْ سَتَرَتْ وَجْهَهُ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ — اشعياء ٢:٥٩

وَٱسْتَوْلَى ٱنْبَعَثَ مِنْ هٰذَا ٱلأَلَمِ فِي ٱلْقَلْبِ حَالَةٌ أُخْرَى تُسَمَّى إِرَادَةً وَقَصْدًا إِلَى فِعْلٍ لَهُ تَعَلُّقٌ بِٱلْحَالِ وَبِٱلْمَاضِي وَبِٱلاِسْتِقْبَالِ. أَمَّا تَعَلُّقُهُ بِٱلْحَالِ فَبِٱلتَّرْكِ لِلذَّنْبِ ٱلَّذِي كَانَ مُلَابِسًا وَأَمَّا بِٱلاِسْتِقْبَالِ فَبِٱلْعَزْمِ عَلَى تَرْكِ ٱلذَّنْبِ ٱلْمَفُوتِ لِلْمَحْبُوبِ إِلَى آخِرِ ٱلْعُمْرِ وَأَمَّا بِٱلْمَاضِي فَتَلَافِي مَا فَاتَ بِٱلْجَبْرِ وَٱلْقَضَاءِ إِنْ كَانَ قَابِلًا لِلْجَبْرِ فَٱلْعِلْمُ (١) هُوَ ٱلأَوَّلُ وَهُوَ مَطْلَعُ هٰذِهِ ٱلْخَيْرَاتِ وَأَعْنِي بِهٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلإِيمَانَ وَٱلْيَقِينَ فَإِنَّ ٱلإِيمَانَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلتَّصْدِيقِ بِأَنَّ ٱلذُّنُوبَ سُمُومٌ مُهْلِكَةٌ وَٱلْيَقِينُ عِبَارَةٌ عَنْ تَأَكُّدِ هٰذَا ٱلتَّصْدِيقِ وَٱنْتِفَاءِ ٱلشَّكِّ عَنْهُ وَٱسْتِيلَائِهِ عَلَى ٱلْقَلْبِ فَيُثْمِرُ نُورُ هٰذَا ٱلإِيمَانِ مَهْمَا أَشْرَقَ عَلَى ٱلْقَلْبِ نَارُ ٱلنَّدَمِ فَيَتَأَلَّمُ بِهَا ٱلْقَلْبُ حَيْثُ يُبْصِرُ بِإِشْرَاقِ نُورِ ٱلإِيمَانِ أَنَّهُ صَارَ مَحْجُوبًا عَنْ مَحْبُوبِهِ كَمَنْ يُشْرِقُ عَلَيْهِ نُورُ ٱلشَّمْسِ وَقَدْ كَانَ فِي ظُلْمَةٍ فَيَسْطَعُ ٱلنُّورُ عَلَيْهِ بِٱنْقِشَاعِ سَحَابٍ أَوِ ٱنْحِصَارِ حِجَابٍ فَرَأَى مَحْبُوبَهُ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى ٱلْهَلَاكِ فَتَشْتَعِلُ نِيرَانُ ٱلْحُبِّ فِي قَلْبِهِ وَتَنْبَعِثُ تِلْكَ ٱلنِّيرَانُ

(١) فَكُلُّ صَلَوةٍ وَكُلُّ تَضَرُّعٍ تَكُونُ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ كَانَ مِنْ كُلِّ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ ٱلَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُلُّ وَاحِدٍ ضَرْبَةَ قَلْبِهِ فَيَبْسُطُ يَدَيْهِ نَحْوَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ. فَٱسْمَعْ أَنْتَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَكَانِ سُكْنَاكَ وَٱغْفِرْ وَٱعْمَلْ وَأَعْطِ كُلَّ إِنْسَانٍ حَسَبَ كُلِّ طُرُقِهِ كَمَا تَعْرِفُ قَلْبَهُ. لأَنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ قَدْ عَرَفْتَ قُلُوبَ كُلِّ بَنِي ٱلْبَشَرِ
سفر الملوك الاول ٨: ٣٨

بِإِرَادَتِهِ لِلِانْتِهَاضِ لِلتَّدَارُكِ . فَالْعِلْمُ وَالنَّدَمُ وَالْقَصْدُ
الْمُتَعَلِّقُ بِالتَّرْكِ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ وَالتَّلَافِي لِلْمَاضِي
ثَلَاثَةُ مَعَانٍ مُرَتَّبَةٍ فِي الْحُصُولِ فَيُطْلَقُ اسْمُ التَّوْبَةِ عَلَى
مَجْمُوعِهَا وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ اسْمُ التَّوْبَةِ عَلَى مَعْنَى النَّدَمِ
وَحْدَهُ وَيُجْعَلُ الْعِلْمُ كَالسَّابِقِ وَالْمُقَدِّمَةِ وَالتَّرْكُ كَالثَّمَرَةِ
وَالتَّابِعِ الْمُتَأَخِّرِ وَبِهٰذَا الِاعْتِبَارِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّدَمُ
تَوْبَةٌ[1] إِذْ لَا يَخْلُو النَّدَمُ عَنْ عِلْمٍ أَوْجَبَهُ وَأَثْمَرَهُ وَعَنْ
عَزْمٍ يَتْبَعُهُ وَيَتْلُوهُ فَيَكُونُ النَّدَمُ مَحْفُوظًا بِطَرَفَيْهِ أَعْنِي
ثَمَرَتَهُ وَمُثْمِرَهُ وَبِهٰذَا الِاعْتِبَارِ قِيلَ فِي حَدِّ التَّوْبَةِ إِنَّهُ
ذَوَبَانُ الْحَشَا لِمَا سَبَقَ مِنَ الْخَطَا فَإِنَّ هٰذَا يَعْرِضُ لِمُجَرَّدِ
الْأَلَمِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ هُوَ نَارٌ فِي الْقَلْبِ تَلْتَهِبُ وَصَدْعٌ فِي
الْكَبِدِ لَا يَنْشَعِبُ وَبِاعْتِبَارِ مَعْنَى التَّرْكِ قِيلَ فِي حَدِّ
التَّوْبَةِ أَنَّهُ خَلْعُ لِبَاسِ الْجَفَاءِ وَنَشْرِ بِسَاطِ الْوَفَاءِ . وَقَالَ
سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ التَّسْتَرِيُّ التَّوْبَةُ تَبْدِيلُ[2] الْحَرَكَاتِ
الْمَذْمُومَةِ بِالْحَرَكَاتِ الْمَحْمُودَةِ وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْخَلْوَةِ
وَالصَّمْتِ وَأَكْلِ الْحَلَالِ وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَعْنَى الثَّالِثِ

(١) لِأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِهِ وَأَنْتُمْ اِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِهِ — متى ٢١ : ٣٢

(٢) انْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الْاَوْلَادِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ متى ١٨ : ٣

مِنَ ٱلتَّوْبَةِ وَٱلْأَقَاوِيلِ فِي حُدُودِ ٱلتَّوْبَةِ لَا تَنْحَصِرُ وَإِذَا فَهِمْتَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلثَّلَاثَةَ وَتَلَازُمَهَا وَتَرْتِيبَهَا عَرَفْتَ أَنَّ جَمِيعَ مَا قِيلَ فِي حُدُودِهَا قَاصِرٌ عَنِ ٱلْإِحَاطَةِ بِجَمِيعِ مَعَانِيهَا وَطَلَبُ ٱلْعِلْمِ بِحَقَائِقِ ٱلْأُمُورِ أَهَمُّ مِنْ طَلَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُجَرَّدَةِ

بَيَانُ وُجُوبِ ٱلتَّوْبَةِ وَفَضْلِهَا

إِعْلَمْ أَنَّ وُجُوبَ[1] ٱلتَّوْبَةِ ظَاهِرٌ بِٱلْإِخْبَارِ وَٱلْآيَاتِ وَهُوَ وَاضِحٌ بِنُورِ ٱلْبَصِيرَةِ عِنْدَ مَنِ ٱنْفَتَحَتْ بَصِيرَتُهُ وَشَرَحَ ٱللهُ بِنُورِ ٱلْإِيمَانِ صَدْرَهُ حَتَّى ٱقْتَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْعَى بِنُورِهِ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْجَهْلِ مُسْتَغْنِيًا عَنْ قَائِدٍ يَقُودُهُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ فَٱلسَّالِكُ إِمَّا أَعْمَى لَا يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلْقَائِدِ فِي خُطْوِهِ وَإِمَّا بَصِيرٌ يُهْدَى إِلَى أَوَّلِ ٱلطَّرِيقِ ثُمَّ يَهْتَدِي بِنَفْسِهِ وَكَذٰلِكَ ٱلنَّاسُ فِي طَرِيقِ ٱلدِّينِ يَنْقَسِمُونَ هٰذَا ٱلْانْقِسَامَ فَمِنْ قَاصِرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُجَاوَزَةِ ٱلتَّقْلِيدِ فِي خُطْوِهِ فَيَفْتَقِرُ إِلَى أَنْ يَسْمَعَ فِي كُلِّ قَدَمٍ نَصًّا مِنْ كِتَابٍ

(١) لَا يَتَبَاطَأُ ٱلرَّبُّ عَنْ وَعْدِهِ كَمَا يَحْسِبُ قَوْمٌ ٱلتَّبَاطُؤَ لٰكِنَّهُ يَتَأَنَّى وَهُوَ لَا يَشَاءُ أَنْ يَهْلِكَ أُنَاسٌ بَلْ أَنْ يُقْبِلَ ٱلْجَمِيعُ إِلَى ٱلتَّوْبَةِ = بطرس الرسالة الثانية ٣: ٩

ٱللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ وَرُبَّمَا يَعْوزُهُ ذٰلِكَ فَيَتَحَيَّرُ فَسَيْرُ هٰذَا وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ وَعَظُمَ جِدُّهُ مُخْتَصَرٌ وَخُطَاهُ قَاصِرَةٌ. وَمِنْ سَعِيدٍ شَرَحَ ٱللهُ صَدْرَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَيَتَنَبَّهُ لِطَرِيقٍ مَعُوصَةٍ وَقَطْعِ عَقَبَاتٍ مُتْعِبَةٍ وَيُشْرِقُ فِي قَلْبِهِ نُورُ ٱلْإِيمَانِ وَهُوَ لِشِدَّةِ نُورِ بَاطِنِهِ يَجْتَزِئُ بِأَدْنَى بَيَانٍ يَكَادُ زَيْتُهُ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ فَإِذَا مَسَّتْهُ نَارٌ فَهُوَ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي (١) ٱللهُ لِنُورِهِ مَنْ شَاءَ وَهٰذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ مَنْقُولٍ فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ فَمَنْ هٰذَا حَالُهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ وَاجِبَ ٱلتَّوْبَةِ فَيَنْظُرُ أَوَّلًا بِنُورِ ٱلْبَصِيرَةِ إِلَى ٱلتَّوْبَةِ كَمَا هِيَ ثُمَّ إِلَى ٱلْوَاجِبِ مَا مَعْنَاهُ ثُمَّ يَجْمَعُ بَيْنَ مَعْنَى ٱلْوَاجِبِ وَٱلتَّوْبَةِ فَلَا يَشُكُّ فِي ثُبُوتِهِ لَهَا وَذٰلِكَ بِأَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّ مَعْنَى ٱلْوَاجِبِ مَا هُوَ وَاجِبٌ فِي ٱلْوُصُولِ إِلَى سَعَادَةِ ٱلْأَبَدِ وَٱلنَّجَاةِ مِنْ هَلَاكِ ٱلْأَبَدِ فَإِنَّهُ لَوْلَا تَعَلُّقُ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلشَّقَاوَةِ بِفِعْلِ ٱلشَّيْءِ وَتَرْكِهِ لَمْ يَكُنْ لِوَصْفِهِ بِكَوْنِهِ وَاجِبًا مَعْنًى وَقَوْلُ ٱلْقَائِلِ صَارَ وَاجِبًا بِٱلْإِيجَابِ حَدِيثٌ مَحْضٌ فَإِنَّ مَا لَا غَرَضَ لَنَا آجِلًا وَعَاجِلًا فِي فِعْلِهِ وَتَرْكِهِ فَلَا مَعْنَى

(١) افعلوا كل شيء بلا دمدمة ولا محاولة لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء أولادًا لله في وسط جيل معوج وملتوٍ تضيئون بينهم كأنوار في العالم. فيلبي ٢: ١٥

لِاشْتِغَالِنَا بِهِ أَوْجَبَهُ عَلَيْنَا غَيْرُنَا أَوْ لَمْ يُوجِبْهُ فَإِذَا عَرَفَ مَعْنَى الْوُجُوبِ وَأَنَّهُ الْوَسِيلَةُ إِلَى سَعَادَةِ الْأَبَدِ وَعَلِمَ أَنَّ لَا سَعَادَةَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ إِلَّا فِي لِقَاءِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّ كُلَّ مَحْجُوبٍ عَنْهُ بِشَقِيٍّ لَا مَحَالَةَ مَحُولٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهِي مُحْتَرِقٌ بِنَارِ الْفِرَاقِ وَنَارِ الْجَحِيمِ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا مُبْعِدَ عَنْ لِقَاءِ اللهِ إِلَّا اتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ وَالْأُنْسِ بِهَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي وَالْإِكْبَابِ عَلَى حُبِّ مَا لَا بُدَّ مِنْ فِرَاقِهِ قَطْعًا وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا مُقَرِّبَ[1] مِنْ لِقَاءِ اللهِ إِلَّا قَطْعُ عَلَاقَةِ الْقَلْبِ عَنْ زُخْرُفِ هَذَا الْعَالَمِ وَالْإِقْبَالِ بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى اللهِ طَلَبًا لِلْأُنْسِ بِهِ بِدَوَامِ ذِكْرِهِ وَلِلْمَحَبَّةِ لَهُ بِمَعْرِفَةِ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ وَعَلِمَ أَنَّ الذُّنُوبَ الَّتِي هِيَ إِعْرَاضٌ عَنِ اللهِ وَاتِّبَاعٌ لِمَحَابِّ الشَّيَاطِينِ[2] أَعْدَاءِ اللهِ الْمُبْعِدِينَ عَنْ حَضْرَتِهِ سَبَبُ كَوْنِهِ مَحْجُوبًا مُبْعَدًا عَنِ اللهِ تَعَالَى فَلَا يَشُكُّ فِي أَنَّ الِانْصِرَافَ عَنْ طَرِيقِ الْبُعْدِ وَاجِبٌ لِلْوُصُولِ إِلَى الْقُرْبِ وَإِنَّمَا يَتِمُّ الِانْصِرَافُ بِالْعِلْمِ وَالنَّدَمِ وَالْعَزْمِ فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ أَسْبَابُ الْبُعْدِ عَنِ الْمَحْبُوبِ

(١) لِذٰلِكَ أُخْرِجُوا مِنْ وَسْطِهِمْ وَاعْتَزَلُوا بِقَوْلِ الرَّبِّ وَلَا تَمَسُّوا نَجِسًا فَأَقْبَلُكُمْ ٢ كو ٦ : ١٧

(٢) أَيُّهَا الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ مَحَبَّةَ الْعَالَمِ عَدَاوَةٌ لِلّٰهِ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِلْعَالَمِ فَقَدْ صَارَ عَدُوًّا لِلّٰهِ (يعقوب ٤ : ٤)

لَمْ يَنْدَمْ وَلَمْ يَتَوَجَّعْ بِسَبَبِ سُلُوكِهِ فِي طَرِيقِ ٱلْبُعْدِ وَمَا لَمْ يَتَوَجَّعْ فَلَا يَرْجِعُ . وَمَعْنَى ٱلرُّجُوعِ ٱلتَّرْكُ وَٱلْعَزْمُ فَلَا يَشُكُّ فِي أَنَّ ٱلْمَعَانِيَ ٱلثَّلَاثَةَ ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْوُصُولِ إِلَى ٱلْمَحْبُوبِ وَهٰكَذَا يَكُونُ ٱلْإِيمَانُ ٱلْحَاصِلُ عَنْ نُورِ ٱلْبَصِيرَةِ . وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَتَرَشَّحْ لِمِثْلِ هٰذَا ٱلْمَقَامِ ٱلْمُرْتَفِعَةِ ذُرْوَتُهُ عَنْ حُدُودِ أَكْثَرِ ٱلْخَلْقِ فَفِي ٱلتَّقْلِيدِ وَٱلْاِتِّبَاعِ لَهُ مَجَالٌ رَحْبٌ يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى ٱلنَّجَاةِ مِنَ ٱلْهَلَاكِ فَلْيُلَاحِظْ فِيهِ قَوْلَ ٱللّٰهِ وَقَوْلَ رَسُولِهِ وَقَوْلَ ٱلسَّلَفِ ٱلصَّالِحِينَ فَقَدْ قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى (وَتُوبُوا إِلَى ٱللّٰهِ جَمِيعًا[1] أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَهٰذَا أَمْرٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَقَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللّٰهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) وَمَعْنَى ٱلنَّصُوحِ ٱلْخَالِصُ لِلّٰهِ تَعَالَى خَالِيًا عَنِ ٱلشَّوَائِبِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلنُّصْحِ وَيَدُلُّ عَلَى فَضْلِ ٱلتَّوْبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى أَنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٱلتَّائِبُ حَبِيبُ ٱللّٰهِ وَٱلتَّائِبُ مِنَ ٱلذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَقَالَ رَسُولُ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلّٰهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ ٱلْعَبْدِ

(١) فاللهُ الآنَ يأمُرُ جميعَ النَّاسِ في كلِّ مكانٍ أنْ يتوبُوا متغاضيًا عنْ أزمنةِ الجهلِ (اع ١٧ : ٣٠)

ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَٱسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا ٱشْتَدَّ عَلَيْهِ ٱلْحَرُّ وَٱلْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ ٱللهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي ٱلَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَٱسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ فَٱللهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ (١) ٱلْعَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ هٰذَا بِرَاحِلَتِهِ وَفِي بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ قَالَ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ إِذَا أَرَادَ شُكْرَ ٱللهِ أَنَا رَبُّكَ وَأَنْتَ عَبْدِي. وَيُرْوَى عَنِ ٱلْحَسَنِ قَالَ لَمَّا تَابَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هَنَّأَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهَبَطَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ فَقَالَا يَا آدَمُ قَرَّتْ عَيْنُكَ بِتَوْبَةِ ٱللهِ عَلَيْكَ فَقَالَ آدَمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَا جِبْرِيلُ فَإِنْ كَانَ بَعْدَ هٰذِهِ ٱلتَّوْبَةِ سُؤَالٌ فَأَيْنَ مَقَامِي؟ فَأَوْحَى ٱللهُ إِلَيْهِ يَا آدَمُ وَرَّثْتَ ذُرِّيَّتَكَ ٱلتَّعَبَ وَٱلنَّصَبَ وَوَرَّثْتُهُمُ ٱلتَّوْبَةَ فَمَنْ دَعَانِي مِنْهُمْ لَبَّيْتُهُ كَمَا لَبَّيْتُكَ وَمَنْ سَأَلَنِي (٢) ٱلْمَغْفِرَةَ لَمْ أَبْخَلْ عَلَيْهِ لِأَنِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

(١) أَقُولُ لَكُمْ أَنَّهُ هٰكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي ٱلسَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ (لوقا ١٥ : ٧)

(٢) إِنِ ٱعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ

وعادلٌ حتّى يغفرَ لنا خطايانا ويطهّرنا من كلّ إثم (١يو ١: ٩)

يا آدمُ وأحشرُ التائبينَ من القبورِ مستبشرينَ ضاحكينَ ودعاؤهم مستجابٌ والأخبارُ والآثارُ في ذلكَ لا تحصى والإجماعُ منعقدٌ من الأمّةِ على وجوبها إذ معناهُ العلمُ بأنّ الذنوبَ والمعاصي مهلكاتٌ ومبعداتٌ من اللهِ تعالى وهذا داخلٌ في وجوبِ الإيمانِ ولكنْ قد تدهشُ الغفلةُ عنهُ فمعنى هذا العلمِ إزالةُ هذهِ الغفلةِ ولا خلافَ في وجوبها ومن معانيها تركُ المعاصي في الحالِ والعزمُ على تركها في الاستقبالِ وتداركُ ما سبقَ من التقصيرِ في سابقِ الأحوالِ وذلكَ لا يشكُّ في وجوبهِ. وأمّا التندّمُ(١) على ما سبقَ والتحزّنُ عليهِ فواجبٌ وهو روحُ التوبةِ وبهِ تمامُ الثلاثِ فكيفَ لا يكونُ واجبًا بل هو نوعُ ألمٍ يحصلُ لامحالةَ عقيبَ حقيقةِ المعرفةِ بما فاتَ من العمرِ وضاعَ في سخطِ اللهِ فإنْ قلتَ تألّمُ القلبِ أمرٌ ضروريٌّ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ فكيفَ يوصفُ بالوجوبِ. فاعلمْ إنّ سببهُ تحقيقُ العلمِ بفواتِ المحبوبِ وله سبيلٌ إلى تحصيلِ سببهِ وبمثلِ هذا المعنى دخلَ العلمُ

(١) لكَ يا سيّد البرّ. أمّا لنا فحزنٌ الوجوهِ كما هو اليومَ لرجالِ يهوذا ولسكّانِ أورشليمَ ولكلِّ إسرائيلَ القريبينَ والبعيدينَ في كلِّ الأراضي التي طردتهم إليها

تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر من خلق الله وفعله والله خلقكم وما تعملون هذا هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال. فإن قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار(١) أيضا من خلق الله والعبد مضطر في الاختيار الذي له فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول. فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من

من أجل خيانتهم التي خانوك إياها — للرب الهنا المراحم والمغفرة لأننا تمردنا عليه

(دانيال ٩: ٧-٩)

(١) وحسبت جميع سكان الأرض كلا شيء وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل

(دانيال ٤: ٣٥)

حصولِهِ عندَ تمامِ أسبابِهِ فإذا حصلَ انجزامُ الإرادةِ بخلقِ اللهِ تعالى إيّاها تحرّكتِ اليدُ الصحيحةُ إلى جهةِ الطعامِ لا محالةَ إذ بعدَ تمامِ الإرادةِ والقدرةِ يكونُ حصولُ الفعلِ ضروريًا فتحصلُ الحركةُ فتكونُ الحركةُ بخلقِ اللهِ بعدَ حصولِ القدرةِ. وانجزامُ الإرادةِ وهما أيضًا من خلقِ اللهِ. وانجزامُ الإرادةِ يحصلُ بعدَ صدقِ الشهوةِ. والعلمُ بعدمِ الموانعِ وهما أيضًا من خلقِ اللهِ تعالى. ولكنَّ بعضَ هذهِ المخلوقاتِ يترتّبُ على البعضِ ترتيبًا جرتْ بهِ سنّةُ اللهِ تعالى في خلقِهِ (ولن تجدَ لسنّةِ اللهِ تبديلًا) فلا يخلقُ اللهُ حركةَ اليدِ بكتابةٍ منظومةٍ ما لم يخلقْ فيها صفةً تسمّى قدرةً وما لم يخلقْ فيها حياةً وما لم يخلقْ إرادةً مجزومةً. ولا يخلقُ الإرادةَ المجزومةَ ما لم يخلقْ شهوةً وميلًا في النفسِ ولا ينبعثُ هذا الميلُ انبعاثًا تامًا ما لم يخلقْ علمًا بأنّهُ موافقٌ للنفسِ إمّا في الحالِ أو في المآلِ

ولا يخلقُ العلمَ أيضًا إلّا بأسبابٍ أُخرَ ترجعُ إلى

حَرَكَةٍ وَإِرَادَةٍ وَعِلْمٍ. فَالعِلْمُ وَالمَيْلُ الطَّبْعِيُّ أَبَدًا يَسْتَتْبِعُ الإِرَادَةَ الجَازِمَةَ. وَالقُدْرَةُ وَالإِرَادَةُ أَبَدًا تَسْتَرْدِفُ الحَرَكَةَ

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَاجِبَةٌ[1] بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا الثَّلَاثَةِ العِلْمُ وَالنَّدَمُ وَالتَّرْكُ

(١) أَقُولُ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذٰلِكَ تَهْلِكُونَ (لو ١٣:٣)

بَيَانُ أَنَّ وُجُوبَ التَّوْبَةِ عَلَى الفَوْرِ

أَمَّا وُجُوبُهَا عَلَى الفَوْرِ[1] فَلَا يُسْتَرَابُ فِيهِ إِذْ مَعْرِفَةُ كَوْنِ المَعَاصِي مُهْلِكَاتٍ مِنْ نَفْسِ الإِيمَانِ وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الفَوْرِ وَالمُتَفَصِّي عَنْ وُجُوبِهِ هُوَ الَّذِي عَرَفَهُ مَعْرِفَةً زَجَرَهُ ذٰلِكَ عَنِ الفِعْلِ المَكْرُوهِ فَإِنَّ هٰذِهِ المَعْرِفَةَ لَيْسَتْ مِنْ عُلُومِ المُكَاشَفَاتِ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِعَمَلٍ بَلْ هِيَ مِنْ عُلُومِ المُعَامَلَةِ وَكُلُّ عِلْمٍ يُرَادُ لِيَكُونَ بَاعِثًا عَلَى عَمَلٍ فَلَا يَقَعُ التَّفَصِّي عَنْ عُهْدَتِهِ مَا لَمْ يَصِرْ بَاعِثًا عَلَيْهِ. فَالعِلْمُ بِضَرَرِ الذُّنُوبِ إِنَّمَا أُرِيدَ لِيَكُونَ بَاعِثًا عَلَى تَرْكِهَا. فَمَنْ لَمْ يَتْرُكْهَا فَهُوَ فَاقِدٌ لِهٰذَا الجُزْءِ مِنَ الإِيمَانِ وَهُوَ

(١) اَلْيَوْمَ إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلَا تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ كَمَا فِي مَرِيبَةَ مِثْلَ يَوْمِ مَسَّةَ فِي البَرِّيَّةِ مز ٩٥:٧

ٱلْمُرَادُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَا يَزْنِي ٱلزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَا أَرَادَ بِهِ نَفْيَ ٱلْإِيمَانِ ٱلَّذِي يَرْجِعُ إِلَى عُلُومِ ٱلْمُكَاشَفَةِ كَٱلْعِلْمِ بِٱللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَنْفِيهِ ٱلزِّنَا وَٱلْمَعَاصِي وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ نَفْيَ ٱلْإِيمَانِ[1] لِكَوْنِ ٱلزِّنَا مُبْتَعِدًا عَنِ ٱللهِ تَعَالَى مُوجِبًا لِلْمَقْتِ كَمَا إِذَا قَالَ ٱلطَّبِيبُ هٰذَا سُمٌّ فَلَا تَتَنَاوَلْهُ فَإِذَا تَنَاوَلَهُ يُقَالُ تَنَاوَلَ وَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ لَا بِمَعْنَى أَنَّهُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِوُجُودِ ٱلطَّبِيبِ وَكَوْنِهِ طَبِيبًا وَغَيْرُ مُصَدِّقٍ بِهِ بَلِ ٱلْمُرَادُ أَنَّهُ مُصَدِّقٌ أَنَّهُ سُمٌّ مُهْلِكٌ فَإِنَّ ٱلْعَالِمَ بِٱلسُّمِّ لَا يَتَنَاوَلُهُ أَصْلًا فَٱلْعَاصِي بِٱلضَّرُورَةِ نَاقِصُ ٱلْإِيمَانِ. فَٱلْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ كَٱلْمَأْكُولَاتِ ٱلْمُضِرَّةِ لِلْأَبْدَانِ فَلَا تَزَالُ تَجْتَمِعُ فِي ٱلْبَاطِنِ حَتَّى تُغَيِّرَ مِزَاجَ ٱلْأَخْلَاطِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهَا إِلَى أَنْ يُفْسِدَ ٱلْمِزَاجُ فَيَمْرَضَ دَفْعَةً ثُمَّ يَمُوتُ دَفْعَةً فَكَذٰلِكَ ٱلْمَعَاصِي فَإِذَا كَانَ ٱلْخَائِفُ مِنَ ٱلْهَلَاكِ فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلْمُنْقَضِيَةِ يَجِبُ عَلَيْهِ تَرْكُ ٱلسُّمُومِ وَمَا يَضُرُّهُ مِنَ ٱلْمَأْكُولَاتِ فِي كُلِّ حَالٍ وَعَلَى ٱلْفَوْرِ

(١) وَأَمَّا ٱلَّذِي يَرْتَابُ فَإِنْ أَكَلَ يُدَانُ لِأَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ. وَكُلُّ مَا لَيْسَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ فَهُوَ خَطِيَّةٌ — رومية ١٤: ٢٣

فَالْخَائِفُ مِنْ هَلَاكِ الْأَبَدِ أَوْلَى بِأَنْ يَجِبَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَإِذَا كَانَ مُتَنَاوِلُ السُّمِّ إِذَا نَدِمَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَقَيَّأَ وَيَرْجِعَ عَنْ تَنَاوُلِهِ بِإِبْطَالِهِ وَإِخْرَاجِهِ عَنِ الْمَعِدَةِ عَلَى سَبِيلِ الْفَوْرِ وَالْمُبَادَرَةِ تَلَافِيًا لِبَدَنِهِ الْمُشْرِفِ عَلَى هَلَاكٍ لَا يَفُوتُ عَلَيْهِ إِلَّا هٰذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةُ فَمُتَنَاوِلُ سُمُومِ الدِّينِ وَهِيَ الذُّنُوبُ أَوْلَى بِأَنْ يَجِبَ عَلَيْهِ الرُّجُوعُ عَنْهَا بِالتَّدَارُكِ الْمُمْكِنِ مَا دَامَ يَبْقَى لِلتَّدَارُكِ مُهْلَةٌ وَهُوَ الْعُمُرُ فَإِنَّ الْمَخُوفَ مِنْ هٰذَا السُّمِّ فَوَاتُ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ الَّتِي فِيهَا النَّعِيمُ الْمُقِيمُ وَالْمُلْكُ الْعَظِيمُ وَفِي فَوَاتِهَا نَارُ الْجَحِيمِ وَالْعَذَابُ الْمُقِيمُ الَّذِي تَتَصَرَّمُ أَضْعَافُ أَعْمَارِ الدُّنْيَا دُونَ عُشْرِ عُشْرِ مُدَّتِهِ إِذْ لَيْسَ لِمُدَّتِهِ آخِرٌ الْبَتَّةَ فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ إِلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ تَعْمَلَ سُمُومُ الذُّنُوبِ بِرُوحِ الْإِيمَانِ عَمَلًا يُجَاوِزُ الْأَمْرُ فِيهِ الْأَطِبَّاءَ وَاخْتِبَارَهُمْ وَلَا يَنْفَعُ[1] بَعْدَهُمُ الْإِحْتِمَاءُ فَلَا يَنْجَعُ بَعْدَ ذٰلِكَ نُصْحُ النَّاصِحِينَ وَوَعْظُ الْوَاعِظِينَ وَتَحِقُّ الْكَلِمَةُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنَ الْهَالِكِينَ

(١) فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَيْضًا بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرِثَ الْبَرَكَةَ رُفِضَ إِذْ لَمْ يَجِدْ لِلتَّوْبَةِ مَكَانًا مَعَ أَنَّهُ طَلَبَهَا بِدُمُوعٍ.
عبرانيين ١٢: ١٧

وُجُوبُ ٱلتَّوْبَةِ عَامٌّ فِي ٱلأَشْخَاصِ وَٱلأَحْوَالِ
فَلاَ يَنْفَكُّ عَنْهُ أَحَدُ ٱلْبَتَّةَ

إِعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ ٱلْكِتَابِ قَدْ دَلَّ عَلَى هٰذَا إِذْ قَالَ تَعَالَى (وَتُوبُوا إِلَى ٱللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فَعَمَّمَ ٱلْخِطَابَ. وَنُورُ ٱلْبَصِيرَةِ أَيْضًا يُرْشِدُ إِلَيْهِ إِذْ مَعْنَى ٱلتَّوْبَةِ ٱلرُّجُوعُ[1] عَنِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُبْعِدِ عَنِ ٱللهِ ٱلْمُقَرِّبِ إِلَى ٱلشَّيْطَانِ. وَلاَ يُتَصَوَّرُ ذٰلِكَ إِلاَّ مِنْ عَاقِلٍ وَلاَ تَكْمُلُ غَرِيزَةُ ٱلْعَقْلِ إِلاَّ بَعْدَ كَمَالِ غَرِيزَةِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْغَضَبِ وَسَائِرِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمَذْمُومَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَسَائِلُ ٱلشَّيْطَانِ إِلَى إِغْوَاءِ ٱلإِنْسَانِ إِذْ كَمَالُ ٱلْعَقْلِ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ مُقَارَنَةِ ٱلأَرْبَعِينَ وَأَصْلُهُ يَتِمُّ عِنْدَ مُرَاهَقَةِ ٱلْبُلُوغِ وَمَبَادِئُهُ تَظْهَرُ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ وَٱلشَّهَوَاتُ جُنُودُ ٱلشَّيْطَانِ وَٱلْعُقُولُ جُنُودُ ٱلْمَلاَئِكَةِ. فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَامَ ٱلْقِتَالُ[2]

(١) إِرْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ ٱلرَّدِيَّةِ وَٱحْفَظُوا وَصَايَايَ وَفَرَائِضِي حَسَبَ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلَّتِي أَوْصَيْتُ بِهَا آبَاءَكُمْ ٢ مل ١٧: ١٣

(٢) وَإِنَّمَا أَقُولُ ٱسْلُكُوا بِٱلرُّوحِ فَلاَ

بَيْنَهُمَا بِٱلضَّرُورَةِ إِذْ لَا يَثْبُتُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ لِأَنَّهُمَا ضِدَّانِ. فَٱلتَّطَارُدُ بَيْنَهُمَا كَٱلتَّطَارُدِ بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلنُّورِ وَٱلظُّلْمَةِ وَمَهْمَا غَلَبَ أَحَدُهُمَا أَزْعَجَ ٱلْآخَرَ بِٱلضَّرُورَةِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلشَّهَوَاتُ تَكْمُلُ فِي ٱلصِّبَا وَٱلشَّبَابِ قَبْلَ تَمَامِ ٱلْعَقْلِ فَقَدْ سَبَقَ جُنْدُ ٱلشَّيْطَانِ وَٱسْتَوْلَى عَلَى ٱلْمَكَانِ وَوَقَعَ لِلْقَلْبِ بِهِ أُنْسٌ وَإِلْفٌ لَامَحَالَةَ مُقْتَضَيَاتُ ٱلشَّهَوَاتِ بِٱلْعَادَةِ وَغَلَبَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ وَيَعْسُرُ عَلَيْهِ ٱلنُّزُوعُ عَنْهُ ثُمَّ يَلُوحُ ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي هُوَ حِزْبُ ٱللهِ وَجُنْدُهُ وَمُنْقِذُ أَوْلِيَائِهِ مِنْ أَيْدِي أَعْدَائِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ فَإِنْ لَمْ يَقْوَ وَلَمْ يَكْمُلْ سُلِّمَتْ مَمْلَكَةُ ٱلْقَلْبِ لِلشَّيْطَانِ وَأَنْجَزَ ٱللَّعِينُ مَوْعُودَهُ حَيْثُ قَالَ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا. وَإِنْ كَمُلَ ٱلْعَقْلُ وَقَوِيَ كَانَ أَوَّلُ شُغْلِهِ قَمْعَ جُنُودِ ٱلشَّيْطَانِ بِكَسْرِ ٱلشَّهَوَاتِ وَمُفَارَقَةِ ٱلْعَادَاتِ وَرَدِّ ٱلطَّبْعِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْقَهْرِ إِلَى ٱلْعِبَادَاتِ. وَلَا مَعْنَى لِلتَّوْبَةِ إِلَّا هٰذَا وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ[1] عَنْ طَرِيقٍ دَلِيلُهُ ٱلشَّهْوَةُ وَخَفِيرُهُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَى طَرِيقِ

تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ ٱلْجَسَدِ. لِأَنَّ ٱلْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ ٱلرُّوحِ وَٱلرُّوحَ ضِدَّ ٱلْجَسَدِ وَهٰذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا ٱلْآخَرَ حَتَّى تَفْعَلُونَ مَا لَا تُرِيدُونَ = غلاطية ٥: ١٦ و ١٧

(١) إِرْجِعُوا كُلٌّ وَاحِدٍ عَنْ طَرِيقِهِ. ٱلرَّدِيءِ وَعَنْ شَرِّ

أعمالكم واسكنوا في الأرض التي أعطاكم الرب إلهكم إياها من الأزل وإلى الأبد - أرميا ٥:٢٥

قلبا نقيا اخلق في يا الله وروحا مستقيما جدد في داخلي - مزمور ٥١ : ١٠

الله تعالى . وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة فكأن الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبيا كان أم غبيا فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه . فالتوبة إذا فرض عين في حق كل شخص لا يتصور ان يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم

وأما بيان وجوبها على (١) الدوام وفي كل حال فهو إن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا أنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة

(١) وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء . بل قرع على صدره قائلا اللهم ارحمني أنا الخاطئ - لو ١٨ : ١٣

ٱلْمُذْهِلَةِ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ فَإِنْ خَلاَ عَنْهُ فَلاَ يَخْلُو عَنْ غَفْلَةٍ وَقُصُورٍ فِي ٱلْعِلْمِ بِٱللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَكُلُّ ذٰلِكَ نَقْصٌ وَلَهُ أَسْبَابٌ وَتَرْكُ أَسْبَابِهِ بِٱلتَّشَاغُلِ بِأَضْدَادِهَا رُجُوعٌ عَنْ طَرِيقٍ إِلَى ضِدِّهِ وَٱلْمُرَادُ بِٱلتَّوْبَةِ ٱلرُّجُوعُ وَلاَ يُتَصَوَّرُ ٱلْخُلُوُّ فِي حَقِّ ٱلآدَمِيِّ عَنْ هٰذَا ٱلنَّقْصِ وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُونَ فِي ٱلْمَقَادِيرِ فَأَمَّا ٱلأَصْلُ فَلاَ بُدَّ مِنْهُ وَلِهٰذَا قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ وَٱللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً) وَلِذٰلِكَ أَكْرَمَهُ ٱللهُ تَعَالَى بِأَنْ قَالَ (لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فَإِذَا كَانَ هٰذَا حَالَهُ فَكَيْفَ حَالُ غَيْرِهِ

وَٱلْمُرَادُ بِقَوْلِكَ ٱلتَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنَّ ٱلإِنْسَانَ لاَ يَخْلُو فِي مَبْدَإِ[1] خِلْقَتِهِ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ أَصْلاً وَلَيْسَ مَعْنَى ٱلتَّوْبَةِ تَرْكُهَا فَقَطْ بَلْ تَمَامُ ٱلتَّوْبَةِ بِتَدَارُكِ مَا مَضَى[2] وَكُلُّ شَهْوَةٍ ٱتَّبَعَهَا ٱلإِنْسَانُ ٱرْتَفَعَ مِنْهَا ظُلْمَةٌ إِلَى قَلْبِهِ كَمَا يَرْتَفِعُ عَنْ نَفَسِ ٱلإِنْسَانِ ظُلْمَةٌ إِلَى وَجْهِ ٱلْمِرْآةِ ٱلصَّقِيلَةِ فَإِنْ تَرَاكَمَتْ

(١) هٰذَا بِٱلإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِٱلْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي
مزمور ٥١ : ٥

(٢) فَقَالَ لَهُمْ بُطْرُسُ تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى ٱسْمِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ ٱلْخَطَايَا فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ ٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ اع ٢ : ٣٨

ظُلْمَةُ الشَّهَوَاتِ صَارَ رَيْنًا (صَدَأً) كَمَا يَصِيرُ بُخَارُ النَّفَسِ فِي وَجْهِ الْمِرْآةِ عِنْدَ تَرَاكُمِهِ خُبْثًا كَمَا قَالَ تَعَالَى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) فَإِذَا تَرَاكَمَ الرَّيْنُ صَارَ طَبْعًا يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ كَالْخُبْثِ عَلَى وَجْهِ الْمِرْآةِ إِذَا تَرَاكَمَ وَطَالَ زَمَانُهُ وَغَاصَ فِي جِرْمِ[1] الْحَدِيدِ وَأَفْسَدَهُ وَصَارَ لَا يَقْبَلُ الصَّقْلَ بَعْدَهُ وَصَارَ كَالْمَطْبُوعِ مِنَ الْخُبْثِ وَلَا يَكْفِي فِي تَدَارُكِ الشَّهَوَاتِ تَرْكُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَحْوِ تِلْكَ الْأَرْبَانِ الَّتِي انْطَبَعَتْ فِي الْقَلْبِ كَمَا لَا يَكْفِي فِي ظُهُورِ الصُّوَرِ فِي الْمِرْآةِ قَطْعُ الْأَنْفَاسِ وَالْبُخَارَاتِ الْمُسَوِّدَةِ لِوَجْهِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا لَمْ يَشْتَغِلْ بِمَحْوِ مَا انْطَبَعَ فِيهَا مِنَ الْأَرْيَانِ وَكَمَا يَرْتَفِعُ إِلَى الْقَلْبِ ظُلْمَةٌ مِنَ الْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ فَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ نُورٌ مِنَ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الشَّهَوَاتِ فَتَنْمَحِي ظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ بِنُورِ الطَّاعَةِ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا) فَإِذَا لَا يَسْتَغْنِي الْعَبْدُ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ عَنْ مَحْوِ آثَارِ السَّيِّئَاتِ عَنْ قَلْبِهِ بِمُبَاشَرَةِ[2]

(١) لَمَّا رَأَى بَهُوذَا الَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ. قَائِلًا قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا فَقَالُوا مَاذَا عَلَيْنَا أَنْتَ أَبْصِرْ فَطَرَحَ الْفِضَّةَ فِي الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ مت ٢٧: ٣

(٢) فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ مت ٣: ٨

حَسَنَاتٍ تُضَادُّ آثَارُهَا آثَارَ تِلْكَ ٱلسَّيِّئَاتِ. فَإِيَّاكَ مَرَّةً وَاحِدَةً أَنْ تَغُرَّكَ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَلْفَ أَلْفَ مَرَّةٍ أَنْ يَغُرَّكَ بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ فَهٰذِهِ أَسْرَارٌ مِنِ ٱسْتَنْشَقَ مَبَادِيَ رَوَائِحِهَا عَلِمَ أَنَّ لُزُومَ ٱلتَّوْبَةِ ٱلنَّصُوحِ مُلَازِمٌ لِلْعَبْدِ ٱلسَّالِكِ فِي طَرِيقِ ٱللهِ تَعَالَى فِي كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ[1] وَلَوْ عَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ وَإِنَّ ذٰلِكَ وَاجِبٌ عَلَى ٱلْفَوْرِ مِنْ غَيْرِ مُهْلَةٍ

(١) كُنْ أَمِينًا إِلَى ٱلْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ ٱلْحَيَاةِ رؤيا ٢: ١٠

وَلَقَدْ صَدَقَ أَبُو سُلَيْمَانَ ٱلدَّارَانِيُّ حَيْثُ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْكِ ٱلْعَاقِلُ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا عَلَى تَفْوِيتِ مَا مَضَى مِنْهُ فِي غَيْرِ ٱلطَّاعَةِ لَكَانَ خَلِيقًا أَنْ يُحْزِنَهُ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْمَمَاتِ فَكَيْفَ مَنْ يَسْتَقْبِلُ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ بِمِثْلِ مَا مَضَى مِنْ جَهْلِهِ. وَإِنَّمَا قَالَ هٰذَا لِأَنَّ ٱلْعَاقِلَ إِذَا مَلَكَ جَوْهَرَةً نَفِيسَةً وَضَاعَتْ مِنْهُ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ بَكَى عَلَيْهَا لَا مَحَالَةَ وَإِنْ ضَاعَتْ مِنْهُ وَصَارَ ضَيَاعُهَا سَبَبَ هَلَاكِهِ كَانَ بُكَاؤُهُ مِنْهَا أَشَدَّ وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ بَلْ كُلُّ نَفَسٍ[2] جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا خَلَفَ لَهَا وَلَا بَدَلَ مِنْهَا فَإِنَّهَا صَالِحَةٌ

(٢) لِأَنَّهُ مَاذَا يَنْفَعُ ٱلْإِنْسَانَ لَوْ رَبِحَ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ

نفسه . أو ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه مت ١٦ : ٢٦

لِأَنْ تُوصِلَكَ إِلَى سَعَادَةِ الْأَبَدِ وَتُنْقِذَكَ مِنْ شَقَاوَةِ الْأَبَدِ وَأَيُّ جَوْهَرٍ أَنْفَسُ مِنْ هٰذَا فَإِذَا ضَيَّعْتَهَا فِي الْغَفْلَةِ فَقَدْ خَسِرْتَ خُسْرَانًا مُبِينًا فَإِنْ كُنْتَ لَا تَبْكِي عَلَى هٰذِهِ الْمُصِيبَةِ فَذٰلِكَ لِجَهْلِكَ وَمُصِيبَتُكَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ . وَنَوْمُ الْغَفْلَةِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَنْكَشِفُ لِكُلِّ مُفْلِسٍ إِفْلَاسُهُ وَلِكُلِّ مُصَابٍ مُصِيبَتُهُ . وَقَدْ رَفَعَ النَّاسُ عَنِ التَّدَارُكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ[1] اللّٰهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ إِنَّهُ يَقُولُ حِينَئِذٍ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ أَخِّرْهُ لِي يَوْمًا أَتُوبُ فِيهِ إِلَى رَبِّي فَأَتَزَوَّدَ صَالِحًا لِنَفْسِي فَيَقُولُ فَنِيَتِ الْأَيَّامُ فَلَا يَوْمٌ فَيَقُولُ أَخِّرْنِي سَاعَةً فَيَقُولُ فَنِيَتِ السَّاعَاتُ فَلَا سَاعَةٌ فَيُغْلَقُ عَلَيْهِ بَابَ التَّوْبَةِ فَيَتَغَرْغَرُ بِرُوحِهِ وَتَزْهَقُ نَفْسُهُ وَلِمِثْلِ هٰذَا يُقَالُ (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ

(١) إن كانت أيامه محدودة وعدد أشهره عندك وقد عينت أجله فلا يجاوزه فأقصر عنه ليستريح إلى أن يسر كالأجير بانتهاء يومه ايوب ١٤ : ٥ و ٦

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْآنَ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا
ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ
مِنْ قَرِيبٍ) مَعْنَاهُ عَنْ قُرْبِ عَهْدٍ بِٱلْخَطِيئَةِ بِأَنْ يَتَنَدَّمَ
عَلَيْهَا وَيَمْحُوَ أَثَرَهَا بِحَسَنَةٍ يَرْدِفُهَا بِهَا قَبْلَ أَنْ يَتَرَاكَمَ
ٱلرَّيْنُ عَلَى ٱلْقَلْبِ فَلَا يَقْبَلُ ٱلْمَحْوَ وَلِذٰلِكَ قَالَ صَلَّى ٱللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتْبِعِ ٱلسَّيِّئَةَ[1] ٱلْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَمَنْ تَرَكَ
ٱلْمُبَادَرَةَ إِلَى ٱلتَّوْبَةِ بِٱلتَّسْوِيفِ كَانَ بَيْنَ خَطَرَيْنِ عَظِيمَيْنِ
(أَحَدُهُمَا) أَنْ تَتَرَاكَمَ ٱلظُّلْمَةُ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَعَاصِي
حَتَّى رَيْنًا وَطَبْعًا فَلَا يَقْبَلُ ٱلْمَحْوَ (ٱلثَّانِي) أَنْ يُعَاجِلَهُ
ٱلْمَرَضُ أَوِ ٱلْمَوْتُ فَلَا يَجِدُ مُهْلَةً لِلِٱشْتِغَالِ بِٱلْمَحْوِ فَيَأْتِيَ
ٱللهَ بِقَلْبٍ غَيْرِ سَلِيمٍ وَلَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ

(١) لَا يَغْلِبَنَّكَ ٱلشَّرُّ بَلِ ٱغْلِبِ ٱلشَّرَّ بِٱلْخَيْرِ
رومية ١٢ : ٢١

بَيَانُ أَنَّ ٱلتَّوْبَةَ ٱلصَّحِيحَةَ مَقْبُولَةٌ

إِعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا فَهِمْتَ مَعْنَى ٱلْقَبُولِ لَمْ تَشُكَّ فِي أَنَّ كُلَّ تَوْبَةٍ صَحِيحَةٍ فَهِيَ مَقْبُولَةٌ فَٱلنَّاظِرُونَ بِنُورِ ٱلْبَصَائِرِ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ قَلْبٍ سَلِيمٍ مَقْبُولٌ عِنْدَ ٱللهِ وَمُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِهِ (١) ٱلْبَاقِيَةِ إِلَى وَجْهِ ٱللهِ تَعَالَى وَعَلِمُوا أَنَّ ٱلْقَلْبَ خُلِقَ سَلِيمًا فِي ٱلْأَصْلِ وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا تَفُوتُهُ ٱلسَّلَامَةُ بِكَدُورَةٍ تَزْهَقُ وَجْهَهُ مِنْ كُلْمَةِ ٱلذُّنُوبِ وَعَلِمُوا أَنَّ نَارَ ٱلنَّدَمِ تُحْرِقُ ٱلْغَيْرَةَ وَأَنَّ نُورَ ٱلْحَسَنَةِ يَمْحُو عَنْ وَجْهِ ٱلْقَلْبِ ظُلْمَةَ ٱلسَّيِّئَةِ وَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لِظَلَامِ (٢) ٱلْمَعَاصِي مَعْ نُورِ ٱلْحَسَنَاتِ كَمَا لَا طَاقَةَ لِظَلَامِ ٱللَّيْلِ مَعْ نُورِ ٱلنَّهَارِ بَلْ كَمَا لَا طَاقَةَ لِلْوَسَخِ مَعَ ٱلصَّابُونِ. وَكَمَا أَنَّ ٱلثَّوْبَ ٱلْوَسِخَ لَا يَقْبَلُهُ ٱلْمَلِكُ لِأَنْ يَكُونَ لِبَاسَهُ فَٱلْقَلْبُ ٱلْمُظْلِمُ لَا يَقْبَلُهُ ٱللهُ تَعَالَى لِأَنْ يَكُونَ فِي جِوَارِهِ وَكَمَا أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلثَّوْبِ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلْخَسِيسَةِ يُوسِّخُ

(١) طُوبَى لِلْأَنْقِيَاءِ ٱلْقَلْبِ لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ ٱللهَ متى ٥ : ٤

(٢) لَا تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. لِأَنَّهُ أَيَّةُ خُلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَٱلْإِثْمِ. وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ ٱلظُّلْمَةِ ٢كو٦ : ١٤

ٱلثَّوْبَ وَغَسْلَهُ بِٱلصَّابُونِ وَٱلْمَاءِ ٱلْحَارِّ يُنَظِّفُهُ لَا مَحَالَةَ فَٱسْتِعْمَالُ ٱلْقَلْبِ فِي ٱلشَّهَوَاتِ يُوَسِّخُ ٱلْقَلْبَ وَغَسْلُهُ بِمَاءِ (١) ٱلدُّمُوعِ وَحُرْقَةِ ٱلنَّدَمِ يُنَظِّفُهُ وَيُطَهِّرُهُ وَيُزَكِّيهِ وَكُلُّ قَلْبٍ زَكِيٍّ طَاهِرٍ فَهُوَ مَقْبُولٌ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلتَّزْكِيَةُ وَٱلتَّطْهِيرُ وَأَمَّا ٱلْقَبُولُ فَمَبْذُولٌ (٢) قَدْ سَبَقَ بِهِ ٱلْقَضَاءُ ٱلْأَزَلِيُّ ٱلَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ وَهُوَ ٱلْمَعْنِيُّ فَلَاحًا فِي قَوْلِهِ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

فَمَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلتَّوْبَةَ تَصِحُّ وَلَا تُقْبَلُ كَمَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلشَّمْسَ تَطْلُعُ وَٱلظَّلَامَ لَا يَزُولُ وَٱلثَّوْبَ يُغْسَلُ بِٱلصَّابُونِ وَٱلْوَسَخُ لَا يَزُولُ إِلَّا أَنْ يَغُوصَ ٱلْوَسَخُ لِطُولِ تَرَاكُمِهِ فِي تَجَاوِيفِ ٱلثَّوْبِ فَلَا يَقْوَى ٱلصَّابُونُ عَلَى قَلْعِهِ فَمَثَلُ ذٰلِكَ أَنْ تَتَرَاكَمَ ٱلذُّنُوبُ حَتَّى تَصِيرَ طَبْعًا وَرَيْنًا عَلَى ٱلْقَلْبِ فَمِثْلُ هٰذَا ٱلْقَلْبِ لَا يَرْجِعُ وَلَا يَتُوبُ. نَعَمْ قَدْ يَقُولُ بِٱللِّسَانِ تُبْتُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ كَقَوْلِ ٱلْقَصَّارِ بِلِسَانِهِ قَدْ غَسَلْتُ ٱلثَّوْبَ وَذٰلِكَ لَا يُنَظِّفُ ٱلثَّوْبَ أَصْلًا فَمَا لَمْ يُغَيِّرْ صِفَةَ ٱلثَّوْبِ بِٱسْتِعْمَالِ مَا يُضَادُّ ٱلْوَصْفَ ٱلْمُتَمَكِّنَ

(١) ٱلآنَ أَنَا أَفْرَحُ لَا لِأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ بَلْ لِأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ لِلتَّوْبَةِ. لِأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ ٱللهِ لِكَيْ لَا تَخْسَرُوا مِنَّا فِي شَيْءٍ. لِأَنَّ ٱلْحُزْنَ ٱلَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ ٱللهِ يُنْشِئُ تَوْبَةً لِخَلَاصٍ بِلَا نَدَامَةٍ. وَأَمَّا حُزْنُ ٱلْعَالَمِ فَيُنْشِئُ مَوْتًا ٢كو٧: ٩و١٠

(٢) مَنْ يُقْبِلُ إِلَيَّ لَا أُخْرِجُهُ خَارِجًا يوحنا٦: ٣٧

بِهِ فَهٰذَا حَالُ ٱمْتِنَاعِ أَصْلِ ٱلتَّوْبَةِ وَهُوَ غَيْرُ بَعِيدٍ بَلْ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى كَافَّةِ ٱلْخَلْقِ ٱلْمُقْبِلِينَ عَلَى ٱلدُّنْيَا ٱلْمُعْرِضِينَ عَنِ ٱللهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَهٰذَا ٱلْبَيَانُ كَافٍ عِنْدَ ذَوِي ٱلْبَصَائِرِ فِي قَبُولِ ٱلتَّوْبَةِ وَلٰكِنَّا نُعَضِّدُ جَنَاحَهُ بِنَقْلِ ٱلْآيَاتِ وَٱلْأَخْبَارِ وَٱلْآثَارِ (فَكُلُّ ٱسْتِبْصَارٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ ٱلْكِتَابُ وَٱلسُّنَّةُ لَا يُوثَقُ بِهِ) وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (وَهُوَ ٱلَّذِي[1] يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ) وَقَالَ تَعَالَى (غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبَةِ) وَأَقُولُ خَلَقَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلطَّاعَةَ مُكَفِّرَةً لِلْمَعْصِيَةِ وَٱلْحَسَنَةَ مَاحِيَةً لِلسَّيِّئَةِ كَمَا خَلَقَ ٱلْمَاءَ مُزِيلًا لِلْعَطَشِ وَقَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ (ٱلتَّائِبُ[2] مِنَ ٱلذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ)

(١) أَنَا أَنَا هُوَ ٱلْمَاحِي ذُنُوبَكَ لِأَجْلِ نَفْسِي وَخَطَايَاكَ لَا أَذْكُرُهَا اش ٤٣: ٢٥

(٢) هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ يَقُولُ ٱلرَّبُّ إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَٱلْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَٱلثَّلْجِ إِنْ كَانَتْ حُمْرًا كَٱلدُّودِيِّ تَصِيرُ كَٱلصُّوفِ اش ١: ١٨

تمام التوبة وشروطها ودوامها

ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً فالندم هو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب. وعلامته طول الحسرة والحزن وإسكاب الدمع[1] والفكر. فمهما استشعر عقوبة نازلة بولده طال عليه مصيبته وبكاؤه وأي عزيز أعز عليه من نفسه. وأي عقوبة أشد من النار وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي. وأي مخبر أصدق من الله ورسوله ولو حدثه إنسان واحد يتطبب أن مرض ولده لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه. فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار. ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها إلى النار فألم الندم كلما كان

(١) ولكن يقول الرب ارجعوا إلي بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح. يوئيل ٢: ١٢

أَشَدَّ كَانَ تَكْفِيرُ ٱلذُّنُوبِ بِهِ أَرْجَى فَعَلَامَةُ صِحَّةِ ٱلنَّدَمِ رِقَّةُ ٱلْقَلْبِ وَغَزَارَةُ ٱلدَّمْعِ. وَمِنْ عَلَامَتِهِ أَنْ تَتَمَكَّنَ مَرَارَةُ تِلْكَ ٱلذُّنُوبِ فِي قَلْبِهِ بَدَلًا عَنْ حَلَاوَتِهَا فَيَسْتَبْدِلُ بِٱلْمَيْلِ كَرَاهِيَةً[1] وَبِٱلرَّغْبَةِ نَفْرَةً كَمَنْ يَنْفِرُ عَنْ عَسَلٍ فِيهِ سُمٌّ وَلَوْ كَانَ فِي غَايَةِ ٱلْجُوعِ وَٱلشَّهْوَةِ لِلْحَلَاوَةِ فَوِجْدَانُ ٱلتَّائِبِ مَرَارَةَ ٱلذَّنْبِ كَذٰلِكَ يَكُونُ وَذٰلِكَ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ قَذَوْقُهُ ذَوْقُ ٱلْعَسَلِ[2] وَعَمَلُهُ عَمَلُ ٱلسُّمِّ. وَلَا تَصِحُّ ٱلتَّوْبَةُ وَلَا تُصَدَّقُ إِلَّا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْإِيمَانِ وَلَمَّا عَزَّ مِثْلُ هٰذَا ٱلْإِيمَانِ عَزَّتِ ٱلتَّوْبَةُ وَٱلتَّائِبُونَ. فَلَا تَرَى إِلَّا مُعْرِضًا عَنِ ٱللهِ تَعَالَى مُتَهَاوِنًا بِٱلذُّنُوبِ مُصِرًّا عَلَيْهَا. فَهٰذَا شَرْطُ تَمَامِ ٱلنَّدَمِ وَيَنْبَغِي أَنْ يَدُومَ إِلَى ٱلْمَوْتِ. وَيَنْبَغِي أَنْ يَجِدَ هٰذِهِ ٱلْمَرَارَةَ فِي جَمِيعِ ٱلذُّنُوبِ

وَأَمَّا ٱلْقَصْدُ ٱلَّذِي يَنْبَعِثُ مِنْهُ وَهُوَ إِرَادَةُ ٱلتَّدَارُكِ فَلَهُ تَعَلُّقٌ بِٱلْحَالِ[3] وَهُوَ يُوجِبُ تَرْكَ كُلِّ مَحْظُورٍ هُوَ مُلَابِسٌ لَهُ وَأَدَاءَ كُلِّ فَرْضٍ هُوَ مُتَوَجِّهٌ عَلَيْهِ فِي ٱلْحَالِ وَلَهُ تَعَلُّقٌ بِٱلْمَاضِي[4] وَهُوَ تَدَارُكُ مَا فَرَطَ وَبِٱلْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ دَوَامُ

(١) مَخَافَةُ ٱلرَّبِّ بُغْضُ ٱلشَّرِّ. ٱلْكِبْرِيَاءَ وَٱلتَّعَظُّمَ وَطَرِيقَ ٱلشَّرِّ وَفَمَ ٱلْأَكَاذِيبِ أَبْغَضْتُ امثال ٨:١٣

(٢) لِأَنَّ شَفَتَيِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ تَقْطُرَانِ عَسَلًا وَحَنَكُهَا أَنْعَمُ مِنَ ٱلزَّيْتِ لٰكِنَّ عَاقِبَتَهَا مُرَّةٌ كَٱلْأَفْسَنْتِينِ حَادَّةٌ كَسَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ ام ٥:٣و٤

(٣) حِدْ عَنِ ٱلشَّرِّ وَٱصْنَعِ ٱلْخَيْرَ. ٱطْلُبِ ٱلسَّلَامَةَ وَٱسْعَ وَرَاءَهَا مز ٣٤:١٤

(٤) ٱذْكُرْ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتَ وَتُبْ رؤ ٢:٥

ٱلطَّاعَةِ وَدَوَامُ تَرْكِ ٱلْمَعْصِيَةِ إِلَى ٱلْمَوْتِ

وَمِنْ أَهَمِّ مَا يَجِبُ تَدَارُكُ ٱلْحُقُوقِ ٱلْمَالِيَّةِ فَمَنْ تَنَاوَلَ مَالاً بِغَصْبٍ أَوْ خِيَانَةٍ أَوْ غَبْنٍ فِي مُعَامَلَةٍ بِنَوْعِ تَلْبِيسٍ كَتَرْوِيجِ زَائِفٍ أَوْ سَتْرِ عَيْبٍ مِنَ ٱلْمَبِيعِ أَوْ نَقْصِ أُجْرَةِ أَجِيرٍ أَوْ أَكْلِ أُجْرَتِهِ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ يُفَتِّشَ عَنْهُمْ لِيَسْتَحِلَّهُمْ أَوْ لِيُؤَدِّيَ حُقُوقَهُمْ (١) أَوْ لِوَرَثَتِهِمْ وَلْيُحَاسِبْ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْحَبَّاتِ وَٱلدَّوَانِقِ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ فِي ٱلْقِيَامَةِ. وَيُنَاقِشْ قَبْلَ أَنْ يُنَاقَشَ. فَمَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي ٱلدُّنْيَا طَالَ فِي ٱلْآخِرَةِ حِسَابُهُ فَإِنْ عَجَزَ فَلَا يَبْقَى لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا أَنْ يُكْثِرَ مِنَ ٱلْحَسَنَاتِ بِقَدْرِ كَثْرَةِ مَظَالِمِهِ فَهٰذَا طَرِيقُ كُلِّ تَائِبٍ فِي رَدِّ ٱلْمَظَالِمِ ٱلثَّابِتَةِ فِي ذِمَّتِهِ. أَمَّا أَمْوَالُهُ ٱلْحَاضِرَةُ فَلْيَرُدَّ إِلَى ٱلْمَالِكِ مَا يَعْرِفُ لَهُ مَالِكًا مُعَيَّنًا. وَمَا لَا يَعْرِفُ مَالِكًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ. فَإِنِ ٱخْتَلَطَ ٱلْحَلَالُ بِٱلْحَرَامِ (٢) فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ ٱلْحَرَامِ بِٱلِٱجْتِهَادِ وَيَتَصَدَّقَ بِذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارِ

وَأَمَّا ٱلْجِنَايَةُ عَلَى ٱلْقُلُوبِ بِمُشَافَهَةِ ٱلنَّاسِ بِمَا

(١) فَوَقَفَ زَكَّا وَقَالَ لِلرَّبِّ هَا أَنَا يَا رَبُّ أُعْطِي نِصْفَ أَمْوَالِي لِلْمَسَاكِينِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ وَشَيْتُ بِأَحَدٍ أَرُدُّ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ لوقا ١٩: ١٨

(٢) فِي وَسَطِكَ حَرَامٌ يَا إِسْرَائِيلُ فَلَا تَتَمَكَّنُ لِلثُّبُوتِ أَمَامَ أَعْدَائِكَ حَتَّى تَنْزِعُوا ٱلْحَرَامَ مِنْ وَسَطِكُمْ يشوع ٧: ١٢

يَسُوءُهُمْ أَوْ يُعِيبُهُمْ فِي ٱلْغَيْبَةِ فَلْيَطْلُبْ كُلَّ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ بِلِسَانِهِ أَوْ آذَى قَلْبَهُ بِفِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ فَمَنْ وَجَدَهُ[٢] وَأَحَلَّهُ بِطِيبِ قَلْبٍ مِنْهُ فَذٰلِكَ كَفَّارَتُهُ وَمَنْ مَاتَ أَوْ غَابَ أَوْ تَعَذَّرَ ٱسْتِحْلَالُهُ فَقَدْ فَاتَ أَمْرُهُ وَلَا يَتَدَارَكُ إِلَّا بِتَكْثِيرِ ٱلْحَسَنَاتِ

(٢) وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَٱذْهَبْ وَعَاتِبْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَحْدَكُمَا إِنْ سَمِعَ مِنْكَ فَقَدْ رَبِحْتَ أَخَاكَ متى ١٨: ١٥

وَمِنْ مُهِمَّاتِ ٱلتَّائِبِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا أَنْ يَتَعَلَّمَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ وَمَا يُحَرَّمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْكِنَهُ ٱلِٱسْتِقَامَةُ

دَوَاءُ ٱلتَّوْبَةِ وَطَرِيقُ ٱلْعِلَاجِ لِحَلِّ عُقْدَةِ ٱلْإِصْرَارِ

إِعْلَمْ أَنَّ شِفَاءَ ٱلتَّوْبَةِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِٱلدَّوَاءِ . وَكُلُّ دَاءٍ حَصَلَ مِنْ سَبَبٍ فَدَوَاؤُهُ إِبْطَالُهُ . وَلَا يَبْطُلُ ٱلشَّيْءُ إِلَّا بِضِدِّهِ . وَلَا سَبَبَ لِلْإِصْرَارِ إِلَّا ٱلْغَفْلَةُ وَٱلشَّهْوَةُ . وَلَا يُضَادُّ ٱلْغَفْلَةَ إِلَّا ٱلْعِلْمُ وَلَا يُضَادُّ ٱلشَّهْوَةَ إِلَّا ٱلصَّبْرُ عَلَى

قَطْعِ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمُحَرِّكَةِ لِلشَّهْوَةِ

وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ ٱلنَّافِعَةُ فِي حَلِّ عُقْدَةِ ٱلْإِصْرَارِ وَحَمْلِ ٱلنَّاسِ عَلَى تَرْكِ ٱلذُّنُوبِ فَهِيَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ

(ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَذْكُرَ[1] مَا فِي ٱلْقُرْآنِ مِنَ ٱلْآيَاتِ ٱلْمُخَوِّفَةِ لِلْمُذْنِبِينَ وَٱلْعَاصِينَ وَكَذَا مَا وَرَدَ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلْآثَارِ فِي ذَمِّ ٱلْمَعَاصِي وَمَدْحِ ٱلتَّائِبِينَ (ٱلثَّانِي) حِكَايَاتُ ٱلْأَنْبِيَاءِ[2] وَٱلسَّلَفِ ٱلصَّالِحِينَ وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلْمَصَائِبِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ فَذٰلِكَ شَدِيدُ ٱلْوَقْعِ ظَاهِرُ ٱلنَّفْعِ فِي قُلُوبِ ٱلْخَلْقِ مِثْلُ أَحْوَالِ آدَمَ فِي عِصْيَانِهِ وَمَا لَقِيَهُ مِنَ ٱلْإِخْرَاجِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ وَنَحْوِهَا فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهَا ٱلْقُرْآنُ وَٱلْأَخْبَارُ وَٱلْكُتُبُ ٱلْمُقَدَّسَةُ وُرُودَ ٱلْأَسْمَارِ بَلِ ٱلْغَرَضُ بِهَا ٱلِٱعْتِبَارُ وَٱلِٱسْتِبْصَارُ لِتَعْلَمَ أَنَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لَمْ يُتَجَاوَزْ عَنْهُمْ فِي ٱلذُّنُوبِ ٱلصِّغَارِ فَكَيْفَ يُتَجَاوَزُ عَنْ غَيْرِهِمْ فِي ٱلذُّنُوبِ ٱلْكِبَارِ فَهٰذَا أَيْضًا مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَكْثُرَ جِنْسُهُ عَلَى أَسْمَاعِ ٱلْمُصِرِّينَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ فَهٰذَا نَافِعٌ فِي تَحْرِيكِ دَوَاعِي ٱلتَّوْبَةِ (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُقَرَّرَ

(١) فَتْحُ كَلَامِكَ يُنِيرُ يُعَقِّلُ ٱلْجُهَّالَ مزمور ١١٩ : ١٣٠

(٢) ٱذْكُرُوا ٱمْرَأَةَ لُوطٍ لوقا ١٧ : ٣٢

أَوْ أُولٰئِكَ ٱلثَّمَانِيَةَ عَشَرَ ٱلَّذِينَ سَقَطَ عَلَيْهِمُ ٱلْبُرْجُ فِي سِلْوَامَ وَقَتَلَهُمْ أَتَظُنُّونَ أَنَّ هٰؤُلَاءِ كَانُوا مُذْنِبِينَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ ٱلسَّاكِنِينَ فِي أُورُشَلِيمَ لو ١٣ : ٤

عِنْدَهُمْ أَنَّ تَعْجِيلَ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا مُتَوَقَّعٌ عَلَى الذُّنُوبِ (٤) وَأَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ مِنَ الْمَصَائِبِ فَهُوَ بِسَبَبِ جِنَايَاتِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَوَّفَ بِهِ وَفِي خَبَرٍ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ) وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ . لَيْسَتِ اللَّعْنَةُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ وَنُقْصَانًا فِي الْمَالِ إِنَّمَا اللَّعْنَةُ أَنْ لَا تَخْرُجَ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَقَعْتَ فِي مِثْلِهِ أَوْ شَرٍّ مِنْهُ . وَهُوَ كَمَا قَالَ لِأَنَّ اللَّعْنَةَ هِيَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ فَإِذَا لَمْ يُوَفَّقْ لِلْخَيْرِ وَيُسَّرَ لَهُ الشَّرُّ فَقَدْ أُبْعِدَ . وَالْحِرْمَانُ عَنْ رِزْقِ التَّوْفِيقِ أَعْظَمُ حِرْمَانٍ . وَكُلُّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى ذَنْبٍ آخَرَ وَيَتَضَاعَفُ بِحُرْمَانِ الْعَبْدِ بِهِ عَنْ رِزْقِهِ النَّافِعِ مِنْ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِلذُّنُوبِ وَمِنْ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ بَلْ يَمْقُتُهُ اللهُ تَعَالَى لِيَمْقُتَهُ الصَّالِحُونَ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأَخْبَارُ كَثِيرَةٌ فِي آفَاتِ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا فَمَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْهَا كَانَ عُقُوبَةً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ كَانَتِ اسْتِدْرَاجًا لَهُ وَيُحْرَمُ جَمِيلَ الشُّكْرِ حَتَّى يُعَاقَبَ عَلَى كُفْرَانِهِ وَأَمَّا الْمُطِيعُ فَمِنْ بَرَكَةِ طَاعَتِهِ أَنْ تَكُونَ كُلُّ

(٤) كَمَا فَعَلْتَ يُفْعَلُ بِكَ . عَمَلُكَ يَرْتَدُّ عَلَى رَأْسِكَ عوبديا ١٥

نِعْمَةٍ فِي حَقِّهِ جَزَاءً عَلَى طَاعَتِهِ. وَيُوَفَّقُ لِشُكْرِهَا وَكُلُّ بَلِيَّةٍ كَفَّارَةٌ لِذُنُوبِهِ وَزِيَادَةٌ فِي دَرَجَاتِهِ (الرَّابِعُ) ذِكْرُ مَا وَرَدَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ عَلَى آحَادِ الذُّنُوبِ كَالْخَمْرِ (١) وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ (٢) وَغَيْرِ ذَلِكَ

عُقَدُ الْإِصْرَارِ وَعِلَاجُهُ

(الْأَوَّلُ) يَعْتَقِدُ الْبَعْضُ فِي تَأَخُّرِ الْعِقَابِ وَعِلَاجُهُ أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ وَأَنَّ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبٌ وَأَنَّ الْمَوْتَ (٣) أَقْرَبُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ فَمَا يَدْرِيهِ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ

(الثَّانِي) تَأْجِيلُ التَّوْبَةِ. وَعِلَاجُهُ بِالْفِكْرِ فَإِنَّ أَكْثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ لِأَنَّ الْمُسَوِّفَ (٤) يَبْنِي الْأَمْرَ عَلَى مَا لَيْسَ إِلَيْهِ وَهُوَ الْبَقَاءُ فَلَعَلَّهُ لَا يَبْقَى وَإِنْ بَقِيَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّرْكِ غَدًا كَمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ عَجَزَ فِي الْحَالِ إِلَّا لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ وَالشَّهْوَةُ لَيْسَتْ تُفَارِقُهُ غَدًا بَلْ تَتَضَاعَفُ إِذْ تَتَأَكَّدُ

(١) لِمَنِ الْوَيْلُ لِمَنِ الشَّقَاوَةُ لِمَنِ الْمُخَاصَمَاتُ لِمَنِ الْكَرْبُ لِمَنِ الْجُرُوحُ بِلَا سَبَبٍ لِمَنِ ازْمِهْرَارُ الْعَيْنَيْنِ لِلَّذِينَ يُدْمِنُونَ الْخَمْرَ
امثال ٢٣ : ٢٩

(٢) هٰذِهِ هِيَ اللُّغَةُ الْخَارِجَةُ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ لِأَنَّ كُلَّ سَارِقٍ يُبَادُ مِنْ هُنَا بِحَسَبِهَا وَكُلُّ حَالِفٍ يُبَادُ مِنْ هُنَاكَ بِحَسَبِهَا
زكريا ٥ : ٣

(٣) لِأَنَّهُ حِينَمَا يَقُولُونَ سَلَامٌ وَأَمَانٌ حِينَئِذٍ يُفَاجِئُهُمْ هَلَاكٌ بَغْتَةً كَالْمَخَاضِ لِلْحُبْلَى فَلَا يَنْجُونَ (تسالونيكي الاولى ٥ : ٣)

(٤) إِسْهَرُوا إِذًا

بِالاعْتِيَادِ فَلَيْسَتِ الشَّهْوَةُ الَّتِي أَكَّدَهَا الإِنْسَانُ بِالعَادَةِ كَالَّتِي لَمْ يُؤَكِّدْهَا وَعَنْ هٰذَا هَلَكَ المُسَوِّفُونَ وَمَا مَثَلُ المُسَوِّفِ مِنِ احْتَاجَ إِلَى قَلْعِ شَجَرَةٍ فَرَآهَا لاَ تَنْقَلِعُ إِلاَّ بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ فَقَالَ أُؤَخِّرُهَا سَنَةً ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهَا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الشَّجَرَةَ كُلَّمَا بَقِيَتِ ازْدَادَ رُسُوخُهَا وَهُوَ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ ازْدَادَ ضَعْفُهُ

لِأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَتَى يَأْتِي رَبُّ البَيْتِ أَمَسَاءً أَمْ نِصْفَ اللَّيْلِ أَمْ صِيَاحَ الدِّيكِ أَمْ صَبَاحًا مرقس ١٣: ٣٥

(الثَّالِثُ) الاتِّكَالُ عَلَى عَفْوِ اللهِ تَعَالَى[1] وَعِلاَجُهُ مَا سَبَقَ وَهُوَ كَمَنْ يُنْفِقُ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ وَيَتْرُكُ نَفْسَهُ وَعِيَالَهُ فُقَرَاءَ مُنْتَظِرًا مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَهُ العُثُورَ عَلَى كَنْزٍ فِي أَرْضٍ خَرِبَةٍ فَإِنَّ إِمْكَانَ العَفْوِ عَنِ الذَّنْبِ مِثْلُ هٰذَا الإِمْكَانِ وَهُوَ مِثْلُ مَنْ يَتَوَقَّعُ النَّهْبَ مِنَ الظُّلْمَةِ فِي بَلَدِهِ وَتَرْكِ ذَخَائِرِ أَمْوَالِهِ فِي صَحْنِ دَارِهِ وَقَدَرَ عَلَى دَفْنِهَا وَإِخْفَائِهَا فَلَمْ يَفْعَلْ وَقَالَ أَنْتَظِرُ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُسَلِّطَ غَفْلَةً أَوْ عُقُوبَةً عَلَى الظَّالِمِ النَّاهِبِ حَتَّى لاَ يَتَفَرَّغَ إِلَى دَارِي أَوْ إِذَا انْتَهَى إِلَى دَارِي مَاتَ عَلَى بَابِ الدَّارِ

(الرَّابِعُ) الشَّكُّ وَهُوَ كُفْرٌ وَعِلاَجُهُ أَنْ يُعَالِجَ

(١) مُخِيفٌ هُوَ الوُقُوعُ فِي يَدَيِ اللهِ الحَيِّ عب ١٠: ٣١

لِأَنَّ إِلٰهَنَا نَارٌ آكِلَةٌ عب ١٢: ٢٩

وَلٰكِنْ أُعَاقِبُكُمْ حَسَبَ ثَمَرِ أَعْمَالِكُمْ يَقُولُ الرَّبُّ ار ٢١: ١٤

بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له كما قاله الأنبياء (٢)
المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو نقول أعلم
أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في
مكانين في حالة واحدة فإن قال أعلم استحالته كذلك
هو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء
وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد
مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة إنه ولغت
فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله
أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة فيقول أتركه
لاستحالة لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا
الطعام والصبر عنه إن كان شديدا فهو قريب وإن
صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر
عن الطعام فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا
الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد (١) بل لو
قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط في كل
ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص

(١) لسانهم سهم قتال يتكلم بالغش بفمه يكلم صاحبه بسلام وفي قلبه يضع له كمينا أفما أعاقبهم على هذا يقول الرب أم لا تنتقم نفسي من أمة كهذه
ار ٩: ٨ و ٩

(٢) ويصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين ولا تكون راحة نهارا وليلا للذين يسجدون للوحش ولصورته ولكل من يقبل سمة اسمه رؤيا ١٤: ١١

أَبَدَ الآبَادِ شَيْئًا فَكَيْفَ يَغْتَرُّ رَأْيُ الْعَاقِلِ فِي الصَّبْرِ عَنِ الشَّهَوَاتِ مِائَةَ سَنَةٍ مَثَلاً لِأَجْلِ سَعَادَةٍ (١) تَبْقَى أَبَدَ الآبَادِ

وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ أَنَّهُ قَامَ عِمَارُ بْنُ يَاسِرَ وَقَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنَا عَنِ الْكُفْرِ عَلَى مَاذَا بُنِيَ فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بُنِيَ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ عَلَى الْجَفَاءِ وَالْعَمَى وَالْغَفْلَةِ وَالشَّكِّ فَمَنْ جَفَا احْتَقَرَ الْحَقَّ وَجَهَرَ الْبَاطِلَ وَمَقَتَ الْعُلَمَاءَ وَمَنْ عَمِيَ نَسِيَ الذِّكْرَ وَمَنْ غَفَلَ حَادَ عَنِ الرُّشْدِ وَمَنْ شَكَّ غَرَّتْهُ الأَمَانِي فَأَخَذَتْهُ الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ وَبَدَا لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُ

هٰذَا مُجْمَلُ مَا وَرَدَ عَنِ التَّوْبَةِ فِي أَقْوَالِ (٢) الْغَزَالِيِّ وَالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَالإِنْجِيلِ. وَاللهُ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ هٰذِهِ الْمَجْمُوعَةَ نَافِعَةً وَهَادِيَةً لِلْكَثِيرِينَ إِلَى الطَّرِيقِ وَالْحَقِّ وَالْحَيَاةِ إِنَّهُ السَّمِيعُ الْمُجِيبُ

آمِينَ

(١) وَلاَ يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ وَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ لأَنَّ الرَّبَّ الإِلٰهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ رؤيا ٢٢: ٥

(٢) فَتِشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي يوحنا ٥: ٣٩

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

00347551